كانت لا بدّ منها في ذلك الكتاب المحلق على كافة المكلفين منذ نزوله إلى يوم الدين.

فقد يعبر عن حركات الأرض بـ«الراجفة» و«الكفات» و«الذلول» تدليلاً واضحاً على أن الأرض محكومة بحركات متداخلة فهي «راجفة» وإنها مسرعة في الطيران متقبضة على سطحها وفضائها الكائنين فيها: أحياء وأمواتاً «كفاتاً» وأنها على حركاتها معدّلة لحد لا تحس ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[1] وما أشبه.

وهنا يقول الإمام علي عليه السلام: «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الصم.. فسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحملها».

ذلك، وأمامنا اليوم صورة رائعة للأرض بواسطة الأقمار الصناعية تبيّن لنا كيف يدخل الليل في النهار تدريجياً ويتكور عليه، وكلها أدلة علمية فلكية قرآنية على كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس.

ثم وخلق ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ حال كونها مسخرات ككل ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ حيث سخرها للخلق انتفاعاً لهم منها، دون تدبير رباني لها بأصولها: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[2] وذلك يختلف اختلافاً ما عما سبقها في الآية نفسها:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾[3] فإن لنا تأثيرات في الفلك والأنهار دون الشمس والقمر والليل والنهار.

هذا، وكما أن ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ في ظاهر

(١) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٣.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٢.

التكوين، كذلك - وبأحرى - شمس الرسالة القدسية وقمرها ونجومها في باطن التشريع، إذ يحمله حملته من الله وكما يروى عن رسول الله ﷺ: «النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي»[١].

وهكذا يخاطَب النبي ﷺ في حقل الأمر ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[٢] وكما هنا ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

(١) كما في ينابيع المودة (٢٠) من طريق الحاكم، وابن بطريق في العمدة من طريق مسند أحمد عن علي عليه السلام وأحمد بن حنبل في فضائله: ١٨٩ ح ٢٦٧ عنه عليه السلام والحاكم في المستدرك ٣: ١٤٩ عن ابن عباس وج ٢: ٤٤٨ بإسناده عن جابر وج ٣: ٤٥٧ بإسناده عن محمد بن المنكدر عن أبيه، وكذا الذهبي في تلخيص المستدرك، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٥: ٢٥ بإسناده عن إياس بن سلمة عن أبيه عنه ﷺ والسيوطي في إحياء الميت من طريق الحاكم عن ابن عباس ومن طريق ابن أبي شيبة ومسدد في مسنديهما، والترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى والطبراني جميعاً عن سلمة، ورواه في الجامع الصغير ٥٨٧ عن سلمة بن الأكوع وفي ص ٧ من طريق الحفاظ: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة النخعي والمسدد في مسنديهما، والترمذي في نوادر الأصول، وأبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير، وابن عساكر بإسنادهم جميعاً عن إياس بن سلمة وعن جابر، وأخرجه من طريق الحاكم عن ابن عباس الحزاوي في مشارق الأنوار ٩٠ والنقشبندي في راموز الأحاديث ٢٣٨ والصنعاني في مشارق الأنوار ١٠٩ والحضرمي في رشفة الصادي ١٧ و٣٧ و٧٨ من طريق الحاكم عن ابن عباس وأحمد في المناقب عن علي عليه السلام، وفي وسيلة المآل ٥٩ عنه عليه السلام والسهمودي في الإشراف على فضل الإشراق ٤٠ والأمر تسري في أرجح المطالب ٣٢٩، والنبهاني في الشرف المؤبد ٢٩ عنه عليه السلام وفي جواهر البحار في فضائل النبي المختار ٣٦١ / ١، والنبهاني في الفتح الكبير ٣: ٢٦٧ سلمة، والحموينى في فرائد السمطين ٢: ٢٤١ و٢ و٥٢١ والطبري في ذخائر العقبى ١٧ والزرندي في نظم درر السمطين ٢٣٤ والقدوس الحنفي في سنن الهدى والهيتمي في مجمع الزوائد ٩: ١٧٤ والكافي في السيف اليماني المسلول ٦٤ والكازروني في شرف النبي ٢٨٣ والخوارزمي في مقتل الحسين عليه السلام ١: ١٠٨ عن علي عليه السلام وابن عباس والأنسي اللبناني في الدرر واللآل ٢٠٣ وضيف الله في فيض القدير ٢: ٦٢ وسفيان الفسوي في ترجمة ابن عباس من كتابه: المعرفة والتاريخ ١: ٥٣٨ والصبّان في إسعاف الراغبين ١٤٤ والهيثمي في الصواعق ١٨٥ والقندوزي في الينابيع ٢٠، والمتقي الهندي في كنز العمال ١٣: ٨٨. (عنهم ملحقات إحقاق الحق ٩: ٢٩٤ - ٣٨٠ و١٨: ٣٢٣ - ٣٣٠ وغاية المرام ٢٧٤ الباب ٦٦ و٦٧).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

فلست - أنت أيها الرسول النبي الألمعي - لست تملك شيئاً من أمر التكوين والتشريع والثواب والعقاب والعفو، أو الاستئصال والاستصلاح، أو تدبير المصالح في أوقاتها، أو تقديم الآجال عن مقراتها أو تأخيرها وما أشبه من الأمور الربانية في حقل التكوين والتشريع، و﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ و﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[1].

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ له الخلق وله أمر الخلق استمراراً وتدبيراً وما أشبه من شؤون الخلق لصالحه غاية وبداية وعلى أية حال في كل تكوين وتشريع وما أشبه.

ذلك، فلا مجال هنا لبعض التفلسفات الفالسة الكالسة أن «الأمر» يعني إيجاد المجردات، والخلق هو إيجاد الماديات، فقد ذكر هنا خلق السماوات والأرض والاستواء على عرش تسخيرهما بسائر النجوم وتدبيرها كلها وهو الأمر بعد الخلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث جمع لنفسه الخلق والأمر دون أن يتخذ لنفسه شريكاً أو يكون له يد في الأمر كما لا شريك له في الخلق، والمشركون معترفون بأن الله تعالى هو الخالق لا سواه، ولكنهم يعطون أمر الخلق لغيره كلًّا أو بعضاً.

ثم الأمر هنا ليس ليختص بأمره تعالى بعد خلق الكون، بل وله الأمر قبله وقبل أمره، كما وله الخلق قبل الخلق والأمر وبعدهما، فهو «خالق إذ لا مخلوق وعالم إذ لا معلوم»...[2] فمن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر

(١) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) نور الثقلين ٢: ٤٠ في الخرائج والجرائح قال أبو همام سئل محمد بن صالح أبا محمد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرُّوم: ٤] فقال: له الأمر من قبل أن يأمر به وله الأمر من بعد أن يأمر به مما يشاء فقلت في نفسي هذا قول الله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأقبل علي وقال: هو كما أسررت في نفسك: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وقد يعني الأمر هنا الهدى الشاملة لكلِّ خلق تكوينياً وتشريعياً: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٢) هداية تناسب غايته المخلوق لها.

فهنا ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ حصر لهما بساحة الربوبية، وعبارته الأخرى هو الرب لا سواه، لا يشاركه أحد في خلق أو هدى، في تكوين أو تشريع، ولا تعني الرسالة الإلهية التي هي القمة العالية في مناصب لمن سوى الله إلّا رسالة الأحكام التي يشرعها الله سبحانه.

ذلك، وصيغة الخلق في القرآن تعني - دونما استثناء - كلّ الخليقة، مادية بطاقاتها ومنها الأرواح، فقد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾(٣) - ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(٤) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(٥) ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٦) ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾(٧) ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٨).

فهذه الآيات ونظائرها تدل على تحليق الخلق على كلّ شيء، سواء أكان خلقاً متدرجاً في تكونه كما السماوات والأرض برمتهما، أم دون تدرج

(١) الدر المنثور ٣: ٩٢ - أخرج ابن جرير عن عبد العزيز الشامي عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط ما عمل ومن زعم...

(٢) سورة طه، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٤٩.

(٧) سورة الحج، الآية: ٥.

(٨) سورة الصافات، الآية: ١١.

كما الخلق الأوّل لمكان خلقه لا من شيء، فالمخلوق من شيء يجوز فيه التدرج، ولكن الذي يخلق لا من شيء فلا مجال فيه لتدرج، فغير الخلق الأول بين متدرج التكون وسواه، والخلق الأول محصور في سواه.

وكما أن ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[١] كذلك التدريج وسواه كله لله، والأمر المذكور في القرآن (٧٢) مرة، لم يأت وإن مرة يتيمة بمعنى إنشاء المجردات غير المتدرجة في الانتشاء، إنما هو بين أمر التكوين والتشريع أمراً فيهما ومطلق الشيء والفعل، دونما اختصاص بمجرد وما أشبه، فالأمر الدستور يجمع بالأوامر، والأمر الفعل أو الشيء بالأمور.

ثم الأمر بعد استوائه على العرش هو كلّ أمر في حقل الخلق: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[٢].

وطليق الأمر تدريجياً وسواه لا ينافي في ذكره في سواه كـ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[٣] رغم أن أمر الساعة - وهو مجموع أمري قيامة الإماتة والإحياء - ليس - فقط - في إيجاد مجردات، إنما هو تدبير الكون بلمحة، ثم تعميره بلمحة أخرى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٤] فلا يدل ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٥] إنه من عالم المجردات لمكان الأمر، وانما القصد إلى أنه أياً كان ليس إلّا من الله، سواء أكان روح العصمة الرسالية أم روح القرآن أم سائر الأرواح، إذ ليس للخلق مدخل فيها أبداً، وإنما كله من الله وإن كلّ خلق هو من الله.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ولو أن الأمر غير متدرج، فكيف - إذاً - ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ. . .﴾[١].

وأما ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] ألّا تدرج في أمره، فهذا لا يقتضي سلب أي تدرج وإن كان بأمر الله، فمن نفاذ أمره تعالى دون حاجة إلى تدرج وتمهل أنه لا يريد شيئاً إلّا وهو كائن، فقد أراد تكوين المادة الأولية فكانت دون تدرج، ثم خلق منها السماوات والأرض بتدرج، دون أن يكون ذلك التدرج المقصود فيما فيه التدرج نقصاً في قدرته، بل هو لحكمة عالية ربانية تقتضيه، فقد يقول لأي من مراحل التكوين التدريجي ﴿كُن﴾ فيكون كما يريد دون تمهل ضعفاً في القدرة، وهنا يتجلى معنى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٣] و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤].

ذلك، وباختصار نجد القول بمجرد سوى الله يخالفه العقل والكتاب والسنة، فالعقل إنما يحكم بحدوث المادة والطاقات المادية، وليس المجرد عن المادة بحاجة إلى خالق لتجرده عن الحاجة المحوجة إلى الخالق.

والكتاب مصرح بأن الروح منشأ من البدن: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[٥] وأنه منفوخ في البدن ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾[٦].

والسنة كلمة واحدة مصرحة بمعنى: أن الروح جسم خفيف قد ألبس قالباً كثيفاً، أو أنه كالريح لخفته.

وبعد كلِّ ذلك نتساءل القائلين بتجرد الروح، أليس هو داخلاً في

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٤) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٦) سورة السجدة، الآية: ٩.

البدن، فمحدوداً بحدود البدن، ولا حدّ ولا أبعاد ولا مكان للمجرد عن المادة، اللّهم إلّا الطاقة المادية، وليس النزاع في كيان الروح إلّا في أصل تجرده أو ماديته، وأما كونه طاقة مادية - إن صدقه القائلون بتجرده - فموضع وفاق بين الطرفين، وليس النزاع لفظياً حيث الفلسفة والبحوث الفلسفية ناحية منحى الواقع دون الألفاظ إلّا نظراً إلى مدلولاتها الواقعية.

حول العرش:

لقد تحدثنا حول العرش على ضوء آيات تحمله ولا سيّما آية حمله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[1] و﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ وآية الكرسي في قياس بينه وبين العرش، وما أشبه، أن العرش المنسوب إلى الله، المستوى عليه الله، هو بطبيعة حال هذه النسبة ليس من العروش المادية التي يتكئ عليها أصحابها السلاطين، إنما هو إشارة إلى فعلية السلطة الربانية خلقاً وتقديراً وتدبيراً، فقد كان عرشه هذا على الماء قبل خلق الأرض والسماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[2] فلأن ﴿الْمَاءِ﴾ هنا هو أوّل ما خلق الله - كما يأتي فيه قول فصل على ضوء آيته - ثم بعد خلق السماوات والأرض استوى على عرشهما، ومن ثم بعد خرابهما يستوي على عرش القيامة الكبرى، فهو - إذاً - ذو العرش في هذه المراحل الثلاث واقعياً، وقد كان ذا العرش قبل أن يخلق خلقاً، بمعنى حيطته العلمية والقيومية غير الفعلية، على ما سوف يخلقه، فإنه عالم إذ لا معلوم وخالق إذ لا مخلوق، وقادر إذ لا مقدور، بمعنى أنه تعالى لا تحدث له سلطة بعد ما لم تكن، وإنما تظهر سلطته على ما يحدث بعد كأمنها في علمه وحياته وقدرته، حيث الصفات الفعلية كلها منشآت من الصفات الذاتية.

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.

ولأن الخلق والتقدير هما مخلوقان، فالحيطة العلمية والقيومية عليهما أيضاً مخلوقتان، إذاً فالعرش كسائر الخلق خلق من خلق الله في كيانه الفعلي، كما أنه من صفاته الذاتية في كيانه الشأني[١]، فقد يصح القول أنه

(١) في التوحيد بإسناده عن سلمان الفارسي فيما أجاب به علي عليه السلام الجاثليق فقال علي عليه السلام: إن الملائكة تحمل العرش وليس العرش كما تظن كهيئة السرير ولكنه شيء محدود مخلوق مدبر وربك حامله لا أنه عليه ككون الشيء على الشيء..» أقول: لأن الخلق والتدبير محدودان فالعرش الذي فيه أزمته أمور الخلق محدود بنفس الحدود، ولكن صفات الله الذاتية كذاته غير محدودة.

وفي الكافي عن البرقي رفعه قال: سأل الجاثليق علياً عليه السلام فقال: أخبرني عن الله عز وجل يحمل العرش أو العرش يحمله؟ فقال عليه السلام: الله عز وجل حامل العرش والسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١] - قال: فأخبرني عن قوله: ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، فكيف ذاك وقلت: إنه يحمل العرش والسماوات والأرض؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: إن العرش خلقه الله تبارك وتعالى من أنوار أربعة: نور أحمر منه احمرت الحمرة ونور أخضر اخضرت منه الخضرة ونور أصفر اصفرت منه الصفرة ونور أبيض ابيض منه البياض، وهو العلم الذي حمّله الله الحملة وذلك نور من نور عظمته فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة والأديان المتشتتة، فكلّ شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته لا يستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فكلُّ شيء محمول، والله تبارك وتعالى الممسك لهما أن تزولا والمحيط بهما من شيء وهو حياة كلّ شيء ونور كلّ شيء سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - قال: فأخبرني عن الله أين هو؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام: هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧]، فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى وذلك قوله: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم الله علمه وليس يخرج من هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه وأراه خليله فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وكيف يحمل حملة العرش الله وبحياته حييت قلوبهم وبنوره اهتدوا إلى معرفته... =

لم يكن لله عرش ولا كرسي قبل أن يخلق خلقاً، إذ «كان الله ولم يكن معه شيء» سواءٌ أكان عرش السلطة التدبيرية والتقديرية الفعلية منه تعالى أو السلطة الملائكية المأذونة لهؤلاء المؤامرين، حيث يحملون بما يحمّلون كأداة أمور التكوين والتشريع.

فأصل العرش وهو السلطة الربانية ليس إلّا لله، ثم فصله لعباد له خصوص يحملون أوامره إلى الكائنات، فهم عمال رب العالمين فيما هم به يؤمرون.

فلأن عرش الله هو أمره السلطوي الربوبي، فحملة عرشه هم المحملون أوامره، وعمّاله الذين يعملون بأمره، من ملائكة الوحي وسواهم، وسائر رسل الوحي وسواهم من حملة أوامر الله إلى خلقه.

ومهما كان لعرش الرب حملة يوم القيامة والأولى، لم تكن له حملة يوم خلق الماء، قبل أن يخلق الأرض والسماء، فإنما خلق كلّ الحملة من الماء، وهو مادة الكائنات بأسرها، فلم يحمل عرشه بعدئذ حملة لحاجته إليهم، بل لحاجتهم إلى ذلك الحمل كما المحمل إليهم محتاجون، تطبيقاً لأمر الله لمزيد العناية الربانية إليهم، كما تزيد لمن حمل إليهم تشاريع الله.

هذا، فذلك إيقاع بالغ لهم صارم بعبودية الكون كله لله الواحد القهار ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1] فهنا، وقد ارتعش الضمير الإنساني منساقاً للاستجابة في موكب الكون المستجيب لأمر ربه، من هنا يخاطب بقية العبودية الفطرية أن يدعو المعبود:

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

= أقول: للاطلاع على مضامين الحديث الغامضة راجع تفسير آية الكرسي. وهنا أحاديث أخرى سردناها عندها وأهمها حديث حنان بن سدير فراجع.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٠.

﴿ٱدۡعُواْ﴾ قد تعم دعوة العبودية بمعرفة توحيدية، ودعوة الدعاء فيما تكل الطاقات المخولة إلينا، في قال وحال وفعال، وكما أن يصبح العبد بكلِّ كيانه دعاء الرب.

وكما الدعاء العبودية والعبادة واجبه الركين أن يكون بتضرع وتذلّل، كذلك وبأحرى دعاء الاستدعاء، ولئن تبتلى سائر العبادات بإفلاس في غير إخلاص كما في أكثريتها المطلقة، فعبادة الدعاء هي بطبيعة الحال مُخلِصة غير مُفلسة، لأنها قضية الحاجة التي لا تزول إلّا برحمة من الله، ولكن العبادة - ما كانت صالحة في شروط لها في الفقه الأصغر - تسقط التكليف وإن لم تقع موقع القبول ولم ترفع بصاحبها إلى حضرة الربوبية.

إذاً فـ ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بمثلث الدعوة التوحيدية والعبودية والاستدعاء، في مثلث القال والحال والفعال، فالدعوة والدعاء قلبياً هي الأصل، ثم القال والفعال إذاعتان لها مهما كان في الفعال عضال دون القال.

ذلك، فقضية العبودية الذليلة المفتاقة الهزيلة، أمام الربوبية الشاملة الكاملة العزيزة، أن تختص الدعوة بضراعة وخفية بساحته القدسية دون اعتداء عنها بترك الدعاء أو الدعاء بكبرياء أو صياح وتصدية، فالتضرع الخفي أنسب بجلال الله وجبروته وبقرب الصلة بينه وبين مواليه وعبيده.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ الذي رباكم ويربيكم ما دمتم فدامت حاجاتكم: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامٗا﴾[1] فترك الدعاء - إذاً - اعتداء على ساحة الربوبية عن صالح العبودية.

إذاً فادعوه ﴿تَضَرُّعًا﴾ لكلِّ قصور أو تقصير، اعترافاً ضريعاً بالذل، فاغترافاً من رحمته الغزيرة البارعة، والضراعة هي الضعف والذلة، فالتضرع هو إبراز هما ببكاء وغير بكاء.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.